مخطوطات ومطبوعات

(رسالة الملائكة . أوج التحري . تعريف القدماء)

أرأيت السيل بعد مضيّه وانقطاع مدده كيف يترك وراءه ربعاً ممرعاً للمنتجعين . ونُزُلاً كريماً للمجدبين كذلك المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري فإنه ترك فينا بعد انقضائه آثاراً أدبية لابي العلاء وفي ابي العلاء وعن ابي العلاء لا تحصى فوائدها ولا تنفد فرائدها ولا تنتهي عجائبها .

ومن أنفس تلك الآثار وأعلاها قيمة الثلاثة التي عنونا بها الكلام : مصنف أصدره المجمع العلمي القائم بالمهرجان . وآخر أصدره المعهد الافرنسي بدمشق وثالث أصدرته وزارة المعارف المصرية .

(رسالة الملائكة) ظفر بها المجمع العلمي في بعض مكتبات دمشق القديمة واتفق موعد مهرجان ابي العلاء فرأى ان ينشرها على الجمهور بهذه المناسبة فعهد الى احد اعضائه الأستاذ سليم الجندي بتصحيحها والتعليق عليها ففعل وطبعها المجمع على نفقته في مطبعة الترقي بدمشق فبلغت مع فهارسها ٣٠٠ صفحة بالقطع المتوسط غير ان العجلة في تصحيحها وطبعها ومبادرة أيام المهرجان بإصدارها وتوزيعها أوقع فيها ما كان ينبغي ان لا يقع وهذا ما اعتذر عنه مصححها الفاضل بقوله في المقدمة القيمة التي صدرها بها : (وقد تألب عليّ في هذا العمل ضيق الوقت الذي حدد لانجازه وفقدان مرجع الجأ اليه للمقابلة والتصحيح وانفرادي بالعمل وكثرة اعمالي الخاصة فاضطررت الى الايجاز في بعض المواطن وإلى إهمال القول في بعض آخر وإلى إغفال تراجم بعض الرجال وربما تكرر القول في غير موضع ولم تسلم الرسالة من الهفوات التي تقتضيها العجلة اهـ) ثم وقع في طبعها أغلاط كثيرة تتبعها المصحح الفاضل ونظم بها جدولاً بلغ نحواً من ثلاثة عشر عموداً فكان في هذا الجدول سد لحاجة الحريص وتوفية لرغبة المطالع . ومن أراد التوسع في معرفة أخبار رسالة الملائكة ومختلف اطوارها فليرجع الى مقدمتها المذكورة بقلم المصحح

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والى مقال آخر كان كتبه هو عنها ونشره في مجلة المجمع (ص ٤٨ من الجزء [١ و ٢] من المجلد ١٩ . وفي ص ١٢٣ من الجزء [٣ و ٤ من المجلد المذكور] . وأراني مسوقًا الى التعليق على هذه الرسالة بما يأتي :

ان عشاق الكتب المتتبعين لنوادرها كانوا ظفروا من هذه الرسالة بنسخ طبعوها ونشروها في الشرق والغرب باسم (رسالة الملائكة) مع ان ما طبعوه ونشروه انما هو مقدمة الرسالة لا الرسالة كلها . وذلك ان ابا القاسم علي بن محمد كتب الى ابي العلاء يستفتيه في مسائل في اللغة العربية وغريب كلماتها ومعظمها من علم الصرف تبلغ نحو ١٦ مسألة أجابه عنها في هذه الرسالة بعد ان قدم لها مقدمة لا علاقة لها بتلك المسائل لكنه اخترع لها موضوعًا آخر وافرغه في قالب حوار بينه وبين طائفة من الملائكة ويدور موضوع الحوار حول كلمات لغوية غير الكلمات التي سأله عنها ابو القاسم : فكأن النساخ او الأدباء منهم اذا ظفروا بالرسالة كلها اجتزأوا عنها بمقدمتها لما فيها من هذا الحوار الملائكي المبتدع . وهكذا وجد من مقدمة الرسالة عدة نسخ . وكادت تفنى او تفقد هي نفسها لو لا ما وفق اليه المجمع العلمي وأظفره القدر بها كلها أي بمقدمتها مع اسئلة ابي القاسم وجواب ابي العلاء عليها . غير ان الاسئلة نفسها قد فقد منها ثلاثة هي ١٤ و ١٥ و ١٦ وقد طبعت نسخة المجمع من دون هذه الأسئلة فعسى ان القدر الذي اسعفنا بالرسالة كلها لا يضن علينا بخاتمتها وقد فهم القارئ ان الرسالة سميت بالملائكة تسمية للكل باسم البعض وانها كلها حتى مقدمتها مغمورة بمباحث لفظية ودقائق في علم الصرف لغوية لا يتسع لها الا صدر المتعمق في علم اللغة وخاصة علم الصرف فمن سمع بهذه الرسالة يستهويه اسمها حتى اذا ظفر بها وتصفحها لم يسمع منها تسبيح ملائكة وانما سمع عزيفًا للجن نسمع (اين الشظاظان) [يا أيها الخذوذان] [عجوز شهربة] [ناقة جلنفعة] [آثار سفعنة] [وقافون بالثغرنة] الخ الخ . أما شكل الحوار الذي وقع بين ابي العلاء والملائكة فهو ان ابا العلاء اراد ان يصور لسائله ابي القاسم نقصه وعجزه عن الجواب عن الأسئلة المذكورة فسما به خياله الى ان يقول ما ملخصه : انني كبرت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عن العمل وحانت وفاتي فهل أتوقع ان ادفع عني عزرائيل بتفسير ما استغلق من ألفاظ اللغة فأبادهه باللفظ الذي يدل عليه وهو (الملك) أيكون اصله ملأك او مألك الخ الخ فيعجبه قولي ويلهو عني هنيهة ثم يهم بي فأعود الى لبحث بلباقة فيصغي إليّ حتى اذا استشهدت بشعر لعمر بن أبي ربيعة قال ومن ابن ابي ربيعة هذا ؟ وما هذه الأباطيل ؟ ان كان لك عمل صالح فأنت السعيد والا فاخسأ وراءك قال فأريد ان اشغله عني ببحث كنة (عزرائيل) وما هو أصلها فيقول هيهات ليس الأمر إليّ : إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . ثم يقبض الملك روحه . فيرى نفسه في القبر بين يدي منكر ونكير فيبغتهما بالسؤال عن اشتقاق اسميهما فيقولان هات حجتك (يعني على عقيدة الاسلام) ودع الزخرف فتقرّبت اليهما بقولي : كان ينبغي ان تعرفا وزن جبريل وميكائيل . فلم يصغيا إليّ وازدادا غلظة وكأنه عاد فاستدرجهما حتى اعطيا رأياً في تصريف اسم (موسى) فقال لهما (لله انتما لم اكن أحسب ان الملائكة تنطق بمثل هذا الكلام وتعرف احكام العربية) ثم خاف وقد أشارا اليه بالأرزبّة (وهي عصا من حديد) فقال لهما تثبّتا رحمكما الله كيف تصغران الأرزبّة قالا تصغيرها كذا وجمعها كذا . فإن قالا لي ما كذا أقول كذا . وقد تكرر النقاش بينه وبين منكر ونكير على هذه الصورة التي استغرقت نحو اربع صفحات مما يوهم ان هذين الملكين كانا على حصة موفورة من معرفة علم الصرف . ثم تخيّل ان القيامة قد قامت وانه على أبواب جهنم وانه تودّد الى مالك خازن النار فذكر له اختلاف العلماء في أصل معنى الزبانية واشتقاقها فعبّس مالك في وجهه . اما هو فلم يخجل ولم يرعو بل سأله رأيه في أصل كلمات (غسلين) و (جهنم) و (سقر) فضاق صدر [مالك] وقال له [ما أجهلك واقل تمييزك ما جلست انا ههنا للتصريف وانما جلست لعقاب الكفرة القاسطين] فانتقل الى مناقشة الملكين الآخرين وهما [السائق والشهيد] في مخاطبة الاثنين بضمير المفرد . ثم لما رأى نفسه واحداً استصحب معه جماعة من [خمّان الأدباء] أي سفلتهم وأراذلهم فوقفوا معه على باب الجنة وبدل ان ينادوا رضوان خازنها بقولهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

[يا رضوان] رخموا فقال بعضهم [يا رضوَ] بفتح الواو وقال آخرون [يا رضوُ] بضمها . فاستنكر ذلك منهم فاعتذروا له بأنهم في دار الدنيا هكذا يتكلمون فسألهم ما حاجتهم قالوا توسط لنا لدى أهل الجنة فنعلمهم اشتقاق كلمات [كهرى: [سفرجل][سندس][طوبى][الحور العين][استبرق] و [عبقري] وقالوا له إن كان كبار أهل الجنة يعرفون هذا فان صغارهم وولدانهم يجهلونه فأدخلنا الجنة نعلمهم . فيبتسم رضوان ويقول [ان اصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون] فانصرفوا رحمكم الله فقد اكثرتم الكلام فيما لا منفعة فيه وانما كانت هذه الأشياء أباطيل زخرفت في الدار الفانية فذهبت مع الباطل . فيقولون إذن نادِ لنا بعض علمائنا الذين في الجنة نخاطبه في امر . قال ومن تريدون ؟ فيقولون الخليل بن احمد فيشرف عليهم الخليل . ويقول لهم ما ذا تريدون قالوا تعليم ولدان الجنة علم العربية فيجيبهم بأن الله جعل من يسكن الجنة ناطقاً بلغة يعرب بن قحطان وانما افتقر الناس في الدنيا الى تعلم العربية لأن العربية الأولى أصابها تغيير أما الآن فقد رفع عن أهل الجنة كل الخطأ والوهم . فاذهبوا راشدين فيذهبون وهم محققون فيما طلبوه .

هذه خلاصة مقدمة رسالة الملائكة وقد استغرقت ٥٥ صفحة من الرسالة المطبوعة التي مجموع صفحاتها نحو ٣٠٠ صفحة كما قلنا وباقي الرسالة يتضمن الأجوبة على اسئلة ابي القاسم وكل مباحثها على النمط السابق في المقدمة . لغة وصرف كثير ونحو قليل

وقد يتخلل حزون هذه الأبحاث الصرفية أقوال لأبي العلاء يجد فيها القارئ سهولة بحث . ومتعة نفس . مثال ذلك قوله (في ص ٣٢٦ سطر ٧) : « وقد يقع في الكتب ألفاظ مستغلقة فمنها ما يكون تعذُّر فهمه من قِبَل عبارة واضع الكتاب لأنه يكون متسوّراً [1] على ما بَعُد من الألفاظ وعلى ذلك جاءت عبارة سيبويه في بعض المواضع . ومنها ما يستبهم لأن صاحب الكتاب يكون قاصداً لإبهامه ويقال إن النحويين المتقدمين فعلوا مثل ذلك ليفتقروا اليهم في إيضاح المشكلات .

(١) أي مشتملاً على معرفة ما بعد وغمض من ألفاظ اللغة ويحتمل أن يكون معنى (متسوراً) مشرفاً ومطلعاً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن الفاظ الكتب ما يستعجم لتصحيفٍ يقع فيه : فإن الحرف ربما زاغ عن هيأته فأتعب الناظر وشغل قلب المفكر وربما كان الكلام قد سقط منه شيء فيكون الإخلال به أعظم ومعناه أبعد من الإبانة » اهـ .

وهنا موضع التساؤل او التعجب من ابي العلاء في وضعه طائفة من مصنفاته في شكل قصة وحوار خيالي بين اشخاص أو بين الطير والحيوان أحياناً . فمن تصفح اسماء الكتب التي صنفها علماء عاشوا في زمن ابي العلاء وقبله وبعده لم يجد فيها ما يجده في مصنفاته هو من هذا الوضع الخيالي أو التمثيلي او القصصي : فبين مصنفاته [أدب العصفورين] [خطَب الخيل] [رسالة الضبُعين] [رسالة على لسان ملك الموت] [سجع الحمائم] [الصاهل والشاحج] [كتاب القائف] قالوا : انه على مثال كليلة ودمنة . وهذه رسالة [الملائكة] كما وصفناها للقارئ ورسالة [الغفران] وهي اوسع في الخيال وامتع من رسالة الملائكة . وله كتاب باسم [تظلم السوَر] وهو يشعر بأن سور القرآن تتشاكى وتتظلم من بعض الشيء . هذه المصنفات مما وضعه ابو العلاء تدل بأن له ميلاً خاصاً أو ذوقاً خاصاً في فن القصة لم نعهده لغيره من علمائنا الذين عاشوا في زمنه ومثل بيئته . فممن ورث هذا الميل وكيف تسرب الى نفسه ؟ نعم ان شروط فن القصة في آثاره هذه لم تتوفر بتمامها لكنَّ نواتها قد وجدت في طبع ابي العلاء وغريزته قطعاً . يخطر لي ان هذا الميل تسرب اليه من الفرس فان لأبي العلاء — كما يظهر من ترجمته — زواراً وخلطاء وتلاميذ منهم . اشهرهم الخطيب التبريزي ويظهر ان المعرة كانت الى عهد قريب منزلاً للحجاج والرُّواد الايرانيين يقصدونها لموقعها من طريقهم ولأثر في جامعها من آثار سيدنا الحسين ومن أشهر من زار المعرة في زمن أبي العلاء من الفرس ناصر خسرو الرحالة الفارسي وقد وصفها ووصف ابا العلاء في رحلته التي سماها (سفرنامه) فلا جرم ان يكون — ابو العلاء وهو الذكيّ الألمعي والثقف اللقف — عرف من هؤلاء المعاشرين شيئاً ولو قليلاً من أدب الفرس وتخيلات أدبائهم وقصصهم في مصنفاتهم وما ننس لا ننس كليلة ودمنة وشاهنامة الفردوسي . ومن كان في ذكاء ابي العلاء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لا يعوزه لاجل التأثر والاقتداء والتحدي اكثر من هذا القليل حتى يفيض ذهنه بالكثير مما كان على نمطه ومضروباً على غراره . ويمكن ان تعد مقامات البديع الهمذاني من جملة الآثار التي تأثر بمضمونها ابو العلاء : فهي — وان كانت عربية في مولدها — فارسية في محتدها: إذ ان البديع فارسي العرق كان يقيم ببهرات ومات فيها وكان معاصراً لأبي العلاء جمعهما ربيع الشباب وعاش المعري بعده اكثر من نصف قرن .

وأراني قد تطفلت في التعرض لهذا الموضوع اعني بيان السبب في جعل ابي العلاء يكتب بعض مصنفاته مفرغاً في قالب القصة المتخيلة بينما غيره من أقرانه لم يرو عنهم شيء من هذا القبيل . ولعل غيرنا كتب في هذا الموضوع ووفاه حقه . ولو اطلعنا عليه . لاجتزأنا به . ولم نكتب ما كتبنا .